السيرة والمغازى فى شعركعب بن مالك (رضى الله عنه)

Al-Sirah wa Al-Maghazi in the Poetry of Ka'b bin Malik(R.A)

الدكتورة عمرانه شهزادى*

الدكتور إفتخار أحمد خان **

Abstract

It is usual and natural for human beings to express their love for their love ones. Many poets and orators who were blessed with finest skills of writing, wrote prose and poems of praise for the Holy prophet(PBUH), from which a rich tradition of literature sprang. Examples of this genre including Madha, Sirah, Na,at Qasida, Mawalid, Hulyah Mubarak, Mi'raj, Ghazawat are precious work of such literature.

The said article shed light on the verses of a close companion of Holy prophet, Ka, b bin Malik (May Allah pleased with him) was one of the greatest poets in Medina .He recited his verses in the presence of Muhammad (PBUH) and when he passed away in to the world of eternity, praising him with words of admiration and love.

المغازى جمع غزوة، وهوالسير الى قتال العَدُوِّ من غزا يغزو والسَيرُ جمع سيرة وهي الحالة من السير والسيرة: السنة(١).

فإنّ السيرة والمغازى من أشرف العلوم قدراً واجلها فضلاً لشرف موضوعهٖ مِنْ حيث إنّه يؤرّخ لحياة النبى صلى الله عليه وآلهٖ وسلم مثل:بعثته، وأحداث مولدهٖ وأحوال نشأتِهٖ وأخبار دعوتهٖ فى مكة وهجرته اِلى المدينة وغزواتهٗ وسيرتهٗ وسياستهٗ مع المسلمين والمحاربين والعاهدين إلٰى وفاتهٖ صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّمـ ومن هذه العلوم تعرف مغازى رسول صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم وبعوثه، وكتبه إلى ملوك المشركين وكيف قسّم رسول صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم الغنائم وكيف أقام الحدود فى الغلولِـ وقدكان إهتمام بهذا الفن مبكراً إذكان أصحاب النبى صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم يهتمون المغازى والسيرة النبوية

---

* الأستاذة المساعدة، قسم اللغة العربية، بجامعة الكلية الحكومية للبنات، فيصل آباد، باكستان.

** الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية، بجامعة الكلية الحكومية ، فيصل آباد، باكستان.

كمايحفظون القرآن ويعلّمونها الصغارـ كماقال: على بن الحسين زين العابدين: "كُنّا نعلّم مغازى صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم كما نعلّم السورة من القرآن"[٢].

اِنَّ المسلمين يعرفون أن الشعر تحت رأية الإسلام قد أدّى دوراً هامّاً فى الدعوة الاسلامية وَحبّ المصطفى صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم من شعراء الاسلام قدزادت ملكاتهم وصقل مواهبهم وثبّت أقدامهم أمام اعداء الإسلام بالكلمة الطيّبة بكّل طاقاتِ الإيمان الّتى تزلزل المشركين وتهز رؤوسهم، لقدكان سيرة النبى صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم والغزوات فى حياته ميداناً خَصْباً سار فيه كثير، من الشعراءِ وجاهدوا بلسانه وبسيفه لدين الله تعالٰى وسدّوا عزائم المشركين الَّذين يتعرضون للمسلمينـ حين واكب الغزوات والفتوحات دافع هؤلاء الشعراء عن الإسلام بِكُلّ مَا أتوا مِن فصاحةٍ وبيانٍ وبما فِى نفوسهم من أضواء اليقين والايمانِ.

متاعب قريش اضطر النبى صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم إلى الهجرة مِن مكة إلى المدينة المنورةـ وسرعان مانُشيت بين البلدين معارك طاحنة وانشغل النّاس فيه بالغزوات والفتوحاتـ وَكَانَ ثلاثة شعراء الأنصار يهجونَ المشركين وهم: حسان بن ثابت،وكعب بن مالك وعبداللّه بن رواحة هؤلاء يستطيعونَ أنْ يصوروا تلك الأحداث ويبيّون تلك المشاهد و كان أشعارهم مليئة بالمفهومات الدينية ووصف البطولة والتفخر والمدح والهجاءـ جهَّزهم النبى صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم مع الجيوش والفرسان لِنشرالدعوة الاسلامية. الشعراء الذين صوّروا غزوات الرسول مع سيرته العظيمة منهم: كعب بن مالك رضى اللّه عنه كان اسمه الكامل عمروبن مالك بن أبى كعب الأنصارى السلمى الخزاجى، وكنيته "ابوبشير" فكّناه رسول الله صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم "أباعبداللّه"[٣] كان رضى اللّه عنه شاعراً مرموقًا من شعراء أكابرالمدينة، اشتهر فى الجاهلية وَكَانَ فِى الإسلام من شعراء النبى صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم ـ وشهد أكثر الوقائع[٤] تقول امرأته "خيره" كانت عندكعب بن مالك أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم خَرَج على كعب بن مالك وهو يُنْشَدُ فى مسجد النبى صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم فَلَمَّا رَاَهُ انقبضَ فقال رسول اللّٰه صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم "أنشد" فأنْشَدَ[٥].

عن جابر بن عبداللّٰه، قال رسول اللّٰه صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم "ومَنْ يحمى أعراض المسلمينـ" وقال كعب بن مالك!"أنَا" فقال رسول اللّٰه صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم: "إنك تحسن الشعر"[٦] وقال رسول اللّٰه صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم عن كعب بن مالك رضى اللّٰه عنه "أَهجهُمْ،

فوالَّذى نفسى بيدهٖ لهُوَ أشدّا من النبل" اِنّه كَانَ أشّب القوم وأجلاهم وكان يخرج ويشهد[٧] الصلاة مع المسلمين ويطوف فى الأسواق وروى عنه ثمانين(٨٠) حديثاً هو اوّل من شهد العقبة الأُولى والثانية وبايع الرسول صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم، وهو أحد الثلاثة الَّذي تخلّفُوا عن رسول اللّٰه صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم فى غزوة تبوك فنزل القرآن فى شأنهم ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِيْنَ خُلِّفُوْا...﴾[٨-الف] وهو أوّل من عرف رسول اللّٰه صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم فى غزوة أُحد عندما اشتهر أنّه قدقتل (معاذاللّٰه) وَقَال عرفت عينيه تحت المغز تزهران "فناديت بأعلى صوت يا معشر المسلمين أبشروا! هذا رسول اللّٰه صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم " [٨-ب] وتوفى كعب بن مالك فى زمن معاوية سنة خمسين وروى منه جماعة من التابعين[٩] قد ذكر سيرة رسول صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم فى أقواله وأشعارهٖ وصوّر الغزوات بطريق رائع۔ تتألق سيرة رسول صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم فى أشعاره كاللُؤلؤ والمرجانِ كما يقول كعب بن مالك رضى اللّٰه عنه: كَانَ رسول اللّٰه صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم "إذَا سُرّ وَجهه كأنَّهُ قطعة قَمْرٍ وَكُنَّا نَعْرِفُ ذٰلك مِنه"[١٠]۔ ويقول واصفاً للرسول صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم:

وَمَوَاعظٍ مِنْ رَبِّنَا نَهْدِى بهَا بِلِسَانِ أزْهر طَيّبُ الأَثواب[١١]۔

وقال كعب بن مالك مادحاً الرسول صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم:

فِيْنَا الرَّسُوْلُ شهابٌ ثُمَّ يَتْبَعهُ نُورٌ مُضِيئٌ له فَضْلٌ عَلَى الشُّهُبِ[١٢]۔

يعترف كعب بن مالك فى الأبيات الآتية الهداية الّتى ظهرت بقدوم رسول اللّٰه صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم الى المدينة المنورة عامة وللناس كافَّةً إلى الدنيا:

وَكَانَ بَشِيْرًا لَنَا مُنْذِرًا وَ نُورًا لَنَا ضَوْءُ هٗ قَدْ أضَاءَ
فَألْقَذنَا اَللّٰه فِىَ نورهٖ وَ نجىَّ بِرَحْمَته مِنْ لَظَى[١٣].

وَقَالَ اَيْضًا:

اِذا كَانَ مِنه الْقَولُ كَانَ مُوَفَّقًا وَإنْ كَانَ حَيًّا كَانَ نُورًا مُجَدّداً[١٤].

ويعترف كعب بن مالك الهداية الّذى هدى أُمته وانقذها من الضلالِ:

قَوْمٌ لِأَصلهم السِّيَّادَة كُلها قِدْمًا وَفَرْعهُمُ النَّبِىُّ اَلْمُرْسَلُ
بِيْضُ الوُجُوه تَرَى بُطُونَ أكُفِّهِمْ تَنْدى اِذا اعتذَرَ اَلزَّمَانُ المهعِلُ
وَبهَدْيهِمْ رَضِىَ الاله لِخَلْقه وَبِجَدِّهم نُصِرَ النَّبِىُّ المرسَلُ[١٥]۔

وَقَدْ جَسَّدَ كعب بن مالك رضي الله عنه حِلْمُ النبى صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم مع صفاته العَدِيْدَة الَّتى كانت المثل الأعلى لجميع النَّاس فيَقُوْلُ:

رَشِيْدُ الأمْرِ ذُوْحُكْمٍ وعِلْمٍ وحِلْمٍ لَمْ يَكُنْ نَزْقًا خَفِيْفًا[١٦].

الصبر صفة جليلة يتّصف بها رسول اللّٰه صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم وَاعْتَصَم بها فى جَمِيْع مجال حياته طَوَال عُمْرِهٖ، فى قصيدته الأخرى يقول كعب بن مالك رضي الله عنه:

صَبَرْنَا لهمْ والصَّبْر مِنَّا سَجِيّة اِذَا طَارَتْ الأَبْرَمُ نَسْمُو وَنَرْتُقُ
عَلَى عَادة تَلِيْكُمْ جَرَيْنَا بِصَبْرِنا وَقَدِمًا لدى الغَايَاتِ نجرى فَنَسْبِقُ
لَنَا حَوْمة لَا تُسْتَطَاعُ يَقُودُها نَبِيٌّ أتى بِالحقِّ عَفٌّ مُصَدَّقُ[١٧].

شاعرالرسول يصفَ بأن الرسول عليه الصلاة والسَّلَامُ على رأس المؤمنين فِى ساحة الحربِ يصبر فِى أحرج اللحظات ويعطى الأوامر والدروس لِمَنْ حَوْله مِنَ الجنودِ:

رَسُولُ اللّٰه مُصْطَبِرٌ كَرِيْمٌ بِأمْرِ اللّه ينطق اِذ يقول[١٨].

رسّم كعب بن مالك صورة قيادته ووضح مَاحدث فى معركة أحد انهزم بها المسلمون وفى شعرهٖ حاول ان يَقدم شعراً يهوّن ماوقع هذه المصيبة الّتى أصابت المسلمين يذكر صفات عديدة لقائدهم ومنها الشجاعة۔

نجدالمقدم مَا فِى الهمّ مُعْتَزِمٌ حيّن القلوب عَلَى رَجْفٍ مِنَ الرُّعْبِ
يمضى وَيَذْمِرُنَا غيرَ مَعْصِية كأنّه البدرُ لَمْ يُطْبَعُ عَلَى الكَذِبِ[١٩].

وَأيضاً يوضح صَلَابة النبى صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم فى ساحة الحربِ:

رَئيسهم النَّبِيُّ وَكَانَ صُلْبًا نَقِيُّ القَلْبِ مُصْطَبِرًا عَزُوْفًا[٢٠].

يشيد كعب بن مالك بفضيلة الصدقِ الَّتى تحلّى بها الرسول صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم عندما انهزم المشركون يوم خندق قَالَ كعب بن مالك فى تصديق رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وآله وسلم:

وَكَانَ لَنَا النَّبِيُّ وَزِيْرَ صِدْقٍ به تَعْلُو اَلْبِرَيَة أَجْمَعِيْنَا
لِنَنْصُرَ أحْمَدَا واللّٰه حتّى نكُونَ عِبَادَ صِدْقٍ مُخْلَصِيْنَا[٢١].

ويقول أيضاً:

نذيرٌ صَادِقٌ أدّى كِتَابًا وَآيَاتٌ مُبَيّنة تَثِيْرُ[٢٢].

ويهجو كاذب الرَّسول صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم:

اِنَّ الَّذِيْنَ يُكَذِّبُونَ مُحَمَّدًا كَفَرُوْا وَضَلّوا عَنْ سَبِيْل المتقِى[٢٣].

كانت عفة النبى صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم وطهارته على ذروة بالغة لا يمكن لأيّ نفس أن يّصل إلى هذه الدرجة المنتهى يقول كعب بن مالك عن عِفَّته وطهارته هكذا:

لَنَا حَوْمة لاتستطاع يَقُودها نَبِيٌّ أتى بِالْحَقِّ عَفٌّ مُصَدَّقُ[٢٤].

وكذلك يصف ملبس الرسول صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم بالطيب الطاهر فيقول:

وَمَوَاعِظ مِنْ رَبِّنَا نُهدي بها بِلِسَانِ أزْهر طَيِّبُ الأَثْواب[٢٥].

خلال دراسة سيرة النبى صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم نجد هناك المميزات النبوية أخصّ بها اللّه سبحانه وتعالىٰ حبيبه لم يكن يتصف بها قبل النبى عليه الصلوٰة والسلام من الأنبياء عليهم السلام، وهذا و إنه كان خاتم الانبياء وهذه المميزات لا يمكن حصرها، هنا أذكر التى نجدها فى أشعار كعب بن مالك رضى اللّه عنه: هي: معراج النبى صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم، ارتباط إطاعة الرسول بطاعة اللّه وعالمية النبى عليه الصلوٰة والسلام والكمال، وتصديق النبوة۔ يؤكد كعب بن مالك صحة معراج النبى صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم قائلا:

فَإنْ يَكُ مُوسى كلَّم اللّه جهرةً عَلى جَبْلِ الطُّورِ المنِيْفِ المعَظَّمِ

فَقَدْ كَلَّمَ اللّه النَّبِيَّ مُحَمَّدًا عَلَى المَوْضِعِ الْاَعلى الرَّفِيْعِ المسَوَّم[٢٦].

وهو يؤمن قول اللّه سبحانه بصدق قلبه: ﴿قُلْ اِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّوْنَ اللّه فَاتَّبِعُوْنِى يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْلَكُمْ ذُنُوبِكُمْ﴾[٢٧].

وَقَال اللّه تعالٰى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِيْنَ اَطِيْعُوا اللّهَ وَاَطِيْعُوا الرَّسُوْلَ﴾[٢٨] ويمثّل مفهوم تلك الآيات الكريمة فى أشعاره قائلًا:

نُطِيعُ نَبِيَّنَا ونُطِيعُ رَبًّا هُو الرَّحْمٰنُ كَانَ بِنَا رَؤُوْفًا[٢٩].

وَلَا يبالى بِمَا تَكَلَّفه فِى طَاعة الرَّسُوْلِ مشّاقًا وعَنَاءً ويقول:

وَنُطِيْعُ أمْرَ نَبِيَّنَا و نَجِيْبُه وَاِذا دعا لِكَرِيهة لَمْ نُسْبَقُ

وَمتى يُنادِ الى الشدائد نأتها وَمَتى نَرَ الْغُوْمَاتِ فِيها نُعْنِقُ[٣٠].

وَفى حب الرسول علىه الصلوٰة والسَّلَام اِنَّهٗ يطِيْعُ كُلَّ مَنْ اطاع الرسول فيقول:

مَنْ يَتَّبِعُ قَوْلَ النَّبِيِّ فإنَّه فِيْنَا مُطَاعَ الأَمْرِ حَقٌّ مُصَدَّق[٣١].

ويقول أيضاً:

وَ فِيْنَا رَسُوْلُ اللّه نَتْبَعُ اَمْرَه اِذْ قَالَ فِيْنَا القول لا نَتَطَلَّعُ

تدلّى عليه الرُّوْحُ مِنْ عِنْدَ رَبِّه ينزل مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ وَيَرْفَعُ

وَقَالَ رسولُ اللّٰه لما بَدَوْا لَنَا اِذا ما اشتهى أنّا نُطِيعُ وَنَسْمَعُ
وَقَالَ رَسُوْل اللّٰه لما بدوالنا ذرُوا عَنْكُمْ هَول المنّياتِ وأطمعوا[٣٢].

نجدكعب بن مالك رضى اللّٰه عنه يشترط على كل من أراد الرُّشد أن يتبع المرسل إلى النّاس كآفة:

فَمَنْ يَتْبَعهُ يُهْدَ لِكُلِّ رُشْدٍ وَمَنْ يَكْفُرْبه يُجْزَ اَلكُفُورُ[٣٣].

وَفى مرثيته عليه الصلوٰة والسّلام أظهر أن الراحل عليه الصلوة والسّلام هو خيرالبرية كامِلٌ:

يَا عَيْنُ فَأبْكِيْ بِدَمْعٍ ذَرَى لِخَيْرِ البَرِية وَالمصْطَفٰى
وَبكيِّ الرَّسُوْلَ وَحُقَ البُكَاءُ عَليه لَدَى الحَرْبِ عِنْدَ اللقَاءِ
عَلَى خيرِ مَنْ حَمَلَتْ نَاقة وأتقى البَرِية عِنْدَ التَّقَى[٣٤]۔

بَعْددراسته السيرة عليه الصلوٰة والسلام فِى شعر كعب بن مالك رضي الله عنه نلاحظ ذكر الغزوات فى شعره ذكراً وافّيا۔ وخلال أبياته يصوّر صورة رائعة الوقائع الّتى حدثت فى يوم معركة۔ أوّلًا نذكر أبياته بمناسبة غزوة بدر: عند ذكر غزوة بدر فى أشعارهٖ يصوّر مجمع قريش وهزيمتها لتحارب الإسلام والدعوة المحمدية وتظهر قوة الإسلام ويبيّن أنّ المشركين نال نصِيْبهم مِنَ المعْركة والمسلمونَ حَطّموهم بأسيافهم وَأشارَ إليه قائلا:

أَلَا هَلْ أتَى غَسَّانَ فِى نَأى دارها وَأُخْبَرُ شيء بالأُمُورِ عَلِيْمها
بأَنْ قَدْ رَمَتْنَا عَنْ قيبى عَدَاوَة مَعَدُّ مَعًا جُهَّالُهَا وَحَلِيْمُهَا
فَسَارُوا وَسِرْنَا فَألْتقَيْنَا كَأَنَّنَا أسُودُ لِقَاء لَا يُرَجّى كَلِيْمُهَا
فَوَلَّوا وَدُسْنَاهم بِبيضِ صَوَارِمٍ سَوَاءٌ عَلَيْنَا حِلْفُهَا وَصَمِيْمُهَا[٣٥].

وَبَعْدَ غزوة بدر يعيّر كعب بن مالك مشركي قريش ويصوّر شدّة موقعه بدرٍ وَمَا حدث بسيادتهم ورؤوسهم.

نَسِيْتُمْ ضَرَبْنَا بِقَلِيْبٍ بَدْرٍ غَدَاةُ أَتَاكُمْ المَوْتُ العَجِيْلُ
غدَاةَ ثَوَى أَبُو جَهْلٍ صَدِيْقًا عَلَيه الطَّيْرُ حَائمة تَجُولُ
وَ عُتْبة وَابْنه خَرًّا جَمِيْعًا وَشَيْبةُ عَضَّه السَّيْفُ الصَّقِيْلُ
وَ مُتْرِكُنَا اُمَيّة مُجْلَعِبًّا وَ فِىْ حَيْزُوْمِه لَدْنٌ نَبِيْلٌ
وَ هام بنى ربيعة سَائَلِونَا فَفِىْ اَسْيَافِنَا مِنْهَا فُلُولُ[٣٦].

غزوة أُحد

قد لَعِبَ الشعراء دورًا هامًّا فِى غزوة أُحد حين وصفوا مَادَارَ فيها مِن أحداثٍ وموافق ودارت مساجلات بين الشعراء المسلمين وشعراء الكفار وَرثاء الشعراء المسلمون مَنْ استشهدوا فِى تلك الغزوة

ومقدمة الجيش فى هذه الغزوة كانت فى يدحمزة بن عبدالمطلب۔ فى قصيدته هذه يصف كعب بن مالك مكان المعركة كما يقول:

أَلاهل أَتَى غسان عَنَّا ودُوْنَهم مِنَ الْأَرْضِ خَرْقٌ سَيْرُهٗ مُتَنَعْنِعٌ
صَحَارٍ و أعْلامِ كَأنَّ قَتَامها مِنَ البُعْدِ نَقْعٌ هامِدٌ مُتَقَطِّعٌ
تَظُلُّ به العَزْلُ العَرَامِيْسُ رُزَّجًا وَيَخْلُو به غَيْثُ السَنِيْنَ فَيُمْرِعُ
به جِيَفُ الحَسْرَى يَلُوحُ صَلِيْبها كَمَا لَاحَ كِتَّانُ التجار المؤَضّعُ
به العِيْنُ والآرَامُ يَمْشِيْنَ خِلْفة وبيض نَعَامٍ قَيْضه يَتَقَلَّعُ[٣٧].

ثم يصف بطولة المؤمنين عند دفاع الإسلام فى تلك المعركة ويذكر المشركين مع هزيمتهم قبل ذلك فى غزوة بدر يقول:

مُجَالِدُنَا عَنْ دِيْنِنَا كُلُّ فَخْمَةٍ مُذَّرِيَةٍ فِيها القَوَانِسُ تَلْمَعُ
وَكُلُّ صُمُوتٍ فِى الصُّوانِ كأنّهَا اِذَا لُبِسَتْ نهي مِنَ المآء مُتْرَعُ
وَلَكِنْ بِيَدْرٍ سَاءِلُوا مَنْ لَقِيْتُم مِنَ النَّاسِ والأَنْبَاء بِالْغَيْبِ تَنْفَعُ[٣٨].

ثم يصوّر كعب بن مالك كيفَ الكفار ضَرَبوا خيامهم وَاَبْنِيَهُم يوم أُحدٍ ويذكر الخسران الَّذى يواجهها المسلمون عندما أعرضوا عن نُصح النبى صلى اللّٰه عليه وآله وسلّم وبعد ذٰلك أنَّ فى الجهاد عنداللّٰه أجرٌ عظيمٌ لعبادهٖ الصادقين فى ذلك يقول:

وَلَمَّا ابتَنَوْا بِالْعِرض قَالَ سَرَاتُنَا عَلَامَ اِذَا لَمْ نَمْتَع العِرْضَ نَزِرَعُ
وَفِيْنَا رَسُوْلُ اللّٰه نَتْبَعُ أَمْرَهٗ اِذْ قَالَ فِيْنَا القَوْلَ لَا نَتَطَلَّعُ
تَدَلَّى عَلَيه الرُّوْحُ مِنْ عِنْدَ رَبِّه يُنَزَّلُ مِنْ جَوّ السَّمَاءِ ويُرْفَعُ
نُشَاوِرُهٗ فِيْمَا نُرِيْدُ وَ قصْرُنَا اِذَا مَا اشتَهى أَنَّا نُطِيْعُ وَنَسْمَعُ
وَقَالَ رَسُوْلُ اللّٰه لَمَّا بدوا لنا ذَرُوا عَنْكُمُ هَولَ المنِيَّاتِ وَأطمعُوا
وَكُوْنُوا كَمَنْ يَشترِى الحَيَاة تَقَرُّبًا اِلَى مَلِكٍ يُحْيَا لَديه وَيُرْجَعُ
وَلَكِنْ خُذُوا أسْيَافَكُمْ وَتَوَكَّلُوا على اللّٰه اِنَّ الأَمْرَ لِلّٰه أَجْمَعُ
فَسِرْنَا عَلَيهم جَهْرَةً فِى رِحَالهم ضُحَيًّا عَلَيْنَا البِيْضُ لَا نتخَشَّعُ

ثم يصف المعركة وأحداثها ويذكر عدد المقاتلين من الطرفين ونتائج هذه المعركة ويصوّر حالة الخيول كانّها الجراد المنشتر فِى ذلك يقول:

فجئنَا اِلٰى مَوْجِ البحر وَسْطه أَحَابِيْشُ مِنهم حَاسِدٌ وَمقُنَّعُ
ثَلَاثة الآفٍ وَنَحْنُ نُصِيَّةٌ ثلاث مِئين اِنْ كَثرنَا وَأَرْبَعُ

نُغَاورِهم تَجْرى اَلْمَنِية بيننا نُشَارِعُهم حَوْضَ الْمَنَايَا وَنْشْرَعُ
تهادى قَسِيُّ اَلنَّبْع فينا وفيهم وَ مَا هو اِلَّا اليثرَبِيُّ المقَطَّعُ
وَ مَنْجُوْفة حِرْمِيَّةٌ صَاعِدِيَّةٌ يُذَرُّ عَلَيها السُّمُّ سَاعَة تُصْنَعُ
تَصُوبُ بأيْدَانِ الرِّجَالِ وتَارَة تَمُرُّ بِأَعْرَاضِ البِصَارِ تَقَعْقِعُ
وَخَيْلٌ تَرَاها بِالفَضَاءِ كَاَنَّهَا جَرَادُ صَيًا فِى قَرَّةٍ يَتَرَبَّعُ
فَلَمَّا تَلَاقِيْنَا وَدَارَتْ بِنَا الرَّحَى وَلَيْسَ الأَمْر حَمَّهُ اللّٰهُ مَدْفَعُ
ضَرَبْنَاهم حَقَّ تَرَكْنَا سَرَاتهم كَاَنَّهم بالْقَاعِ خُشْبٌ مُصَرَّعٌ
قَتِلْنَا وَحَالَ القَوْمُ مِنَّا وَرُبَّمَا فَعَلْنَا، وَ لَكِنْ مَا لَدَى اللّٰه أُوْسَعُ
وَدَارَتْ رَحَانَا، وَاَسْتَدَارَت رَحَاهم وَقَدْ جُعِلُوا كُلَّ مِنَ الشَرِّ يَشْيَعُ[٣٩].

وَأخيرًا يذكر أنّ المسلمين لم يأتوا لمغنم دينوى بل يقدمون على الحرب دفاعًا عن عرضٍ أوعقيدة وَلَا يهابونَ أعداءَهم أنهم يعرفونَ آداب القتال فى معاملة المتحاربين والأسرى يقول كعب بن مالك واصفًا الجيش المسلم:

وَنْحْنُ أُنَاسٌ لَانَرَى القَتْلَ سُبَّةً عَلَى كُلِّ مَنْ يَحْمِى الذُّما رَ وَيَمْتَعُ
لكنَّنَا نَقْلِيْ الفِرَارَ وَنرى اَرْ فِرَارَ لِمَنْ يَرْجُوا العَوَاقِبَ يَنْفَعُ
جِلَادُ عَلَى ريب الحوادثِ لاترى على هالك عينًا لَنا الدَّهر تَدْمَعُ
بَنُوا الحربِ لَا نَعْيًا بِشَىءٍ نَقُوْله وَلَا نَحْنُ مِمَّا جرَتِ الحَرْبُ نَجْزَعُ
بَنُوا الحَرْب اِنْ نَظْفَرْ فَلَسْنَا بِضُحَّشٍ وَلَا نَحْنُ مِنْ أَظْفَارِنَا نَتوَجّعُ
وَكُنَّا شهابًا يَتَّقِيْ النَّاسَ حَرَّهُ ويَفْرُجُ عَنه من بليه ويُسْفَعُ[٤٠].

غزوة خندق

بعدالهجرة فى السنة الخامسة تجمت قوى الشرك لمحاربة النبى صلى اللّٰه عليه وآله وسلم والمسلمين بالمدينة مِن أجل على المسلمين. ولما علم الرسول صلى اللّٰه عليه وآله وسلم جمع المسلمين واعلمهم عزائم الأعداء وبعد مشاورة مع أصحابه أمر بحفر الخندق۔ بهذه المناسبة سُمّى هذه المعركة بغزوة خندق۔ وكعب بن مالك فى شعرهٖ يصف يوم هذا ويذكر الشجاعة والنصرة والتضحية لقوم الّذى لقى الاعداء لدفاع الاسلام يقول:

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبٌ يُمْعِمُ بَعْضه بَعْضًا كمَعْمَعةٍ الأَبَاءِ المحْرَقِ
فَلْيَأتِ مَأسَدَةً تُسَنُّ سُيُوفها بَيْنَ المِذادِ وَبَيْنَ جِزْعِ الخَنْدقِ
دَرِبُوا بضَرْبِ المعْلَمِيْنَ وَأَسْلَمُوا مهجَاتِ أَنْفُسهم لِرَبِّ المشَّرق

فِى عُصْبةٍ نَصَرَ الله نَبِيَّه بهمْ وَكَانَ بِعَبْدِهٖ ذا مَرْفَقِ[٤١].

بعدذلك يصف السلاح والدروع الَّذى استعمل فى غزوة خندق ويصوّر السيوف الصارمة المختلفة حيث يقول:

فِى كُلِّ سَابِغةٍ تَخَطُّ فُضُوْلُهَا كَالنهي هبّت رِيْحه الْمُتَرَقْرِقُ
بَيْضَاءَ مُحْكَمةٍ كَأَنَّ قَتِيْرَها حَدَقُ الْجَنَادِبِ ذَاتَ شَك مُوْثَقِ
جَدْلَاءَ يَخْفِزُها تِجَادُ مهنَّدٍ صَافِى الحَدِيْدَة صَارِمٍ رونق
تلِكُمْ مَعَ التَّقْوى تَكُونُ لِبَاسَنَا يَوْمَ الهيَاجِ وَكُلَّ سَاعةٍ مَصْدَقِ[٤٢].

ثم يذكر تعدد المسلمين للمعركة وخيولهم الأصيلة المضمرة الّتى تصعدبفرسانها وتحطّم أعدائهم يقول:

وَنُعِدُّ لِلْاعْدَاءِ كُلِّ مُغَلصٍ وَرْدٍ ومُحْحولِ القَوَائِمِ أَبْلَقِ
تَرَدَى بِفرْسَانِ كَأَنَّ كُمَاتهم عِنْدَ الهِيَاجِ أَسُودُ طَلٍّ مُلْثَقِ
صَدْقُ يَعَاطُونَ اَلكُمَاة حُتُوْفهم تَحْتَ العَمَاية بِالْوَشِيْجِ المزْهق
أَمَرَ الإله بِرَبْطها لِعُدّوِهٖ فِى الحَرْب اِنَّ اللّٰه خَيْرُ مُوَفِّقِ
لِتكُوْنَ غَيْظًا لِلْعَدُوِّهٖ حُيَّطًا للدّار اِنْ دَلَفَتْ خُيُول النُّزَّقِ
وَيُعِيْنُنَا اللّٰه العَزِيْزُ بِقُوَّة مِنه وَصِدْقٍ الصَّبْرِ سَاعة نَلْتَقِى
وَنُطِيْعُ اَمْرَ نَبِيِّنَا وَنُجِيْبه وَاِذَا دَعَا لِكَرِيهة لَمْ نُسْبَقِ
وَمَتَى يُنَادُ اِلى الشَّداءِد نَأتها وَمَتَى نَرَ الحَوْمَاتِ فِيها نُعْنِقُ[٤٣].

وعندما فخر الشاعر ضرار[٤٤]فى قصيدته كثرة القبائل الَّذين جاؤوا لمحاربة للمسلمين فرَدّ كعب بن مالك قائلًا أنَّ فيهم رسولاً وهم مع نبيهم يستطيعون ان يقتلوا ظالمين عاقين حيث يقول:

وَسَاءِلةٍ تُساءِلُ مَا لَقِيْنَا ولو شهدَتْ رَأَتْنَا صَابِرِيْنَا
صَبَرْنَا لَانَرَى لِلّٰه عِدْلًا عَلَى مَا نَابَنَا مُتَوَكِّلِيْنَا
وَكَانَ لَنَا النَّبِيُّ وَزِيْرَ صِدْقٍ به نَعْلُو البَرِية أَجْمَعِيْنَا
نُقَاتِلُ مَعْشَرًا ظَلَمُوا وَعَقُّوا وَكَانوا بِالعَدَاوَة مُرْصَدِيْنَا
نُعَاجِلهم اِذا نَهِضُوا إلِيْنَا بِضَرْبٍ يُعْجِلُ اَلْمُتَسَرَّ عِيْنَا
فِى أَيْمَانِنَا بِيْضٌ خِفسَافٌ بها نَشْقِى مِرَاحَ الشَّاغِبِيْنَا
بِبَابِ الخَنْدَقِيْنَ كَأَنَّ أُسْدًا شَوَابِكهنَّ يَخْمِيْنَ العَرِيْنَا
لِنَنْصُرَ اَحْمَدَا واللّٰه حتّى تكونَ عِبَادَ صِدْقٍ مُخْلِصِيْنَا
وَيَعْلَمُ اَهلُ مكة حِيْنَ سَارُوْا وَاَحْزَابُ أَتوا مُتَحَزِّ بِيْنَا

بِأنَ اللّٰه لَيْسَ لَه شَرِيْكٌ وَانَّ اللّٰه مَولَى المؤْمِنِيْنَا[٤٥].

الطائف

عندماتوجّه المسلمون بقيادة الرسول صلى اللّٰه عليه وآله وسلم إلى الطائف لدعوة الإسلام وبيان موقفه بهذه المناسبة نظم كعب بن مالك قصيدته أن يسجّل مراحل صراع المسلمين حيث يقول فى مطلع قصيدته:

قَضَيْنَا مِنْ تهامة كُلُّ رَيْبٍ وَخَيْبَرَ، ثُمَّ أَجْمَعِيْنَا السُّيُوفَا
نَخَيِّرُها، وَلَوْ نَطقَتْ لَقَالَتْ قَوَاطِعهن: دَوْسًا اَوْ ثقيفًا
فَلَسْتُ لِحَاضنٍ اِنْ كُمْ تَرَوْها بِسَاحة دَارِكُمْ مِنَّا أُلُوفًا
وَنَنْتَزِعُ العُرُوْسَ يَطْن (وجٍّ) وَنُصبِحُ دُوْرُكُمْ مِنَّا خُلُوْفَا
وَيَأتِيَكُمْ لَنَا سَرَعَانُ خَيْلٍ يُغَادِرُ خَلْفه جَمْعًا كَثِيْفًا
بِأيْدِيهم قَوَاقِبُ مُرْهفَات يُرِرْنَ المصَطَلِيْنَ بها الحُتُوفَا
كَأمْثَالِ العَقاءِقِ أخْلَصَتها قُيونِ الهنْدِ لُمْ تضْرَبٍ كَثِيْفًا
تَخَالُ جَدِيّة اَلأبطالِ فيها غَدَاة الزَّحْفِ جَادِيًّا مَدُوْفًا[٤٦].

عندما لم يقبل أهل الطائف دعوة النبى صلى اللّٰه عليه وآله وسلم إلى الإسلام۔ كعب بن مالك رضي الله عنه أنذر المشركين من سوءِ العاقبة ووضّح من يقبل الإسلام يعيش فى عِيْشة راضِية ينطلق كعب رضي الله عنه فى هذا المعنى يقولُ:

أجِدَّهم أَلَيْسَ لهم نَصِيْحٌ مِنَ الأقوامِ كَانَ بِنَا عَرِيْفًا
يخبّرهم بأَنَّا قَدْ جَمِعْنَا عِتَاق الخيل والنُّجُبَ الطَّرُوفًا
فإنْ تلقوا إلينا السلم نقبل ونجعلكم لنا عضدا وريفا
وَإنْ تَابُوا نجاهدكم ونصبر وَلايك أمرنا رعشا ضعيفًا
نجاهد لانبالى من لقينا أأهلكنا التلاد أم الطريقا
وكَمْ مِنْ معشر ألبوا علينا صميم الجذم منهم والحليفا
بكل مهند لين صقيل يسوقهم بها المسامع والأنوفا[٤٧].

غزوة بنى لحيان

بعدغزوة الأحزاب فى السنة الخامس من الهجرة خرج رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وآله وسلم إلى بنى لحيان مع مائتى أصحابه، أهل لحيان غدروا بعشرة من أصحابه، كَانَ النبى صلى اللّٰه عليه وآله وسلم حريصاً على الاقتصاصِ لأصحابه الَّذين استشهدوا على يد هذه القبيلة عند مَا اقترب عليه

الصلوٰة والسلام بجيشه من منازلهم، هم هربوا فى رؤوس الجبال، أقام بها الرسول ليومين لإرهابهم وتحديهم وليظهر للأعداء قوة المسلمين[٤٨]. قال كعب بن مالك بهذه المناسبة.

لَوْ اَنّ بنى لحيان تناظروا لقوا عصبا فى دارهم ذات مصدق
لقوا سرعانا يملأ السرب روعه أمام طحون كالمحجرّة فيلق
ولكنهم كانوا وبارّا تتبعت شهاب حجازٍ ذى متنفق[٤٩].

يوم خيبر

قدوقعت غزوة خيبر فى السنة السابعة للهجرة بين المسلمين واليهود لم يهدأ يهود خيبر عن الكيد ضد الإسلام۔ فخرج الرسول صلى اللّٰه عليه وآله وسلم مع أصحابه لمحاربة ضد اليهود خرج مرحب قائلا الرجز من اليهود: أطعن أحيانا وحينا أضربُ

فأجابه كعب بن مالك رضى اللّٰه عنه:

قد علمت خيبراً إنى كعب وأنّى ممن يشب الحرب
معى حسام كالعقيق عضب

وقدذكر ابن هشام فى كتابه السيرة النبوية شعر كعب بن مالك عن أبى زيد الأنصارى:

وَنَحْنُ وردنا خيبر أو فروضه بكل فتى عارى الأشابع مذود
جواد لدى الغايات لا واهن القوى جريئ على الأعداء فى كل مشهد
عظيم رماد القدر إن أصاب شهادة مِن اللّٰه يرجوها و فوزًا بأحمد
يذود ويحمى عن ذمار محمد ويدفع عنه باللسان وباليد
وينصرهٗ من كل أمر يريبه يجود بنفس دون نفس محمد
يصدق بأتياء بالغيب مخلصا يريد بذات الفوز والعز فى غد[٥٠].

معركة موته

خرج رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وآله وسلم إلى موتة سنة ثمانٍ للهجرة. بمناسبة هذه الغزوة قال كعب بن مالك شعرهٗ بيّن فيها شرف النبى صلى اللّٰه عليه وآله وسلم فيقول:

يا هاشمًا اِن الإله حَبَاكُمْ مَا لَيْسَ يَبْلُغه اللّسان المُقْتَالُ
قومٌ لِأصْلهم السّيَادة كُلّهَا قِدْمًا وَفَرْعهم النَّبِىُ المُرْسِلُ
يهديهم رضى الإله لخلقه وَبجدهم نصر النبى المرسلُ[٥١].

وَلا شك فيه، فى الغزوات للشعر تاثيرهٗ المحرّض فى النفوس وقدرته على تثبيت الهمِم وتقوية العزائم واهتمام رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وآلهٖ وسلّم بالشعرلهزيمة أعداءِ الإسلام الدّيَن كانوا يهجونه

ويصدون عن سبيل اللّٰه عمل جَلِيْلٌ وهذا الفعل المقدس سندٌ رفيعٌ أنّ الأدب مهمة للدفاع عن العقيدة الإسلامية وقول رسول اللّٰه صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم يشجع المسلمين الى يوم القيامة۔ حين قال النبى صلى اللّه عليه وآلهٖ وسلّم: مَا يَمْنَعُ الَّذِيْنَ نَصَرُوا رسول اللّٰه بسلاحهم أَنْ ينصروا بألسنتهم[٥٢].

الهوامش

١ـ لسان العرب، إبن منظور، الإفريقى، ط ١،دار صادر بيروت.

٢ـ البداية و النهاية، ابن كثير، ط، بيروت، ٢٤٢/٣.

٣ـ إبن الاثير، عز الدين ابى الحسن على بن محمد الجوزى، أُسد الغابة فى معرفة الصحابة، تحقيق و تعليق: محمد معوض دارالكتب العلمية بيروت لبنان، ص٩٦٧.

٤ـ أسد الغابة، ج١، ص١٤٤٧.

٥ـ أسد الغابة، ج١،ص١٤٤٨.

٦ـ الدرالمنثور، آية ٢٠٩،جز٦.

٧ـ الاستيعاب فى معرفة الأصحاب،١/٤١٩.

٨ـ الف ـ سورة التوبة، ٩: ١١٨.

٨ـب ـ المصدرنفسه، ص ١/٤١١.

٩ـ البخارى، محمدبن اسماعيل، صحيح البخارى، تحقيق مصطفى ديب البغا دارابن كثير يمامة ، بيروت، ٤/٢٢٩.

١٠ـ كعب بن مالك الانصارى، الديوان، عبدالرحمن المصطاوى دارالمعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الاولى، ١٤٢٨ه، ٢٠٠٧ء، ص ٥.

١١ـ الديوان، كعب بن مالك، ص ٨٥.

١٢ـ المصدرنفسه، ص٧٩.

١٣ـ المصدرنفسه، ص٢٠.

١٤ـ المصدرنفسه، ص٦٣.

١٥ـ المصدرنفسه، ص٤٨.

١٦ـ المصدرنفسه، ص٥٣.

١٧ـ المصدرنفسه، ص٥٧.

١٨ـ المصدرالسابق، ص١٢.

١٩ـ المصدرالسابق، ص٤٨.

٢٠ـ المصدرالسابق، ص٧٤.

٢١ـ المصدرالسابق، ص٢٩.

٢٢ـ المصدرالسابق، ص٥٥.

٢٣ـ المصدرالسابق، ص٥٣.

٢٤ـ المصدرالسابق، ص٢٥.

٢٥ـ المصدرنفسه، ص٦٧.

٢٦ـ المصدرنفسه، ص٤٨.

٢٧ـ سورة آل عمران، ٣: ٣١.

٢٨ـ سورة النساء، ٤: ٥٩.

٢٩ـ المصدرنفسه، ص٥٥.

٣٠ـ المصدرنفسه، ص٥٥.

٣١ـ المصدرنفسه، ص٢٤.

٣٢ـ المصدرنفسه، ص٣٩.

٣٣ـ المصدرنفسه، ص٧٩.

٣٤ـ المصدرنفسه، ص٩٩.

٣٥ـ المصدرنفسه، ص٢٥٣.

٣٦ـ المصدرنفسه، ص٢٢٢.

٣٧ـ المصدرنفسه، ص٢٢٣.

٣٨ـ المصدرنفسه، ص٢٢٥.

٣٩ـ المصدرنفسه، ص٢٢٦-٢٢٥.

٤٠ـ المصدرنفسه، ص٢٢٨-٢٢٧.

٤١ـ المصدرنفسه، ص٢٤٤.

٤٢ـ المصدرنفسه، ص٢٤٥.

٤٣ـ المصدرنفسه، ص٢٤٧-٢٤٦.

٤٤ـ هو ضرار بن الخطاب بن مرداس القرشى، فارس، شاعر، قاتل المسلمين وأسلم فتح مكة، (الاستيعاب فى معرفة الاصحاب، ابن عبدالبر، مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٨٢ه،١/٢٢٧.

٤٥ـ ديوان، كعب بن مالك، ص ٢٨٠-٢٧٩.

٤٦ـ المصدرنفسه، ص ٢٣٥-٢٣٧.

٤٧ـ المصدرنفسه، ص٢٣٦.

٤٨ـ أنظر دـمهدي رزق اللّه، السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية الرياض، ط ١، ص ٤٦٨.

٤٩ـ ديوان، كعب بن مالك، ص ٢٨٠-٢٧٩.

٥٠ـ المصدرنفسه، ص ٢٣٥-٢٣٧.

٥١ـ المصدرنفسه، ص٢٣٦.

٥٢ـ ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف(م: ٥٧١ه) تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤١٥ه - ١٩٩٥ م، ٩٦/٢٨.